المبحث الأول

قضية اللفظ والمعنى

إذا كان القرآن الكريم هو النص المحوري في الثقافة العربية الإسلامية، فإن ثنائية اللفظ والمعنى تعد أبرز مبحث تنازعته علوم هذه الثقافة، والسبب في ذلك أن علاقة اللفظ بالمعنى تمتد إلى أعماق بعيدة في المجال اللغوي من كلام وإبداع ونظم وغير ذلك، فكان لابد أن يوجد مصطلح يمثل جهة اللغة ويعبر عنها وهو (اللفظ)، ومصطلح يعبر عن جهة المضامين وهو (المعنى).

واللفظ في أصل اللغة مصدر بمعنى الرمي، ويتناول مالم يكن صوتا وحرفا، وما هو حرف واحد وأكثر، مهملا كان أو مستعملاً، صادرا من الفم أو لا. ثم خُص في عرف اللغة بما صدر من الفم من الصوت المعتمد على المخرج حرفا واحداً أو أكثر مهملا أو مستعملاً[١].

وفي لسان العرب: لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظا رميته، يقال أكلت الثمر ولفظت النواة أي رميتها[٢].أما في القاموس المحيط: فلفظ بالكلام نطق كتلفظ[٣].

أما المعنى لغة: فهو ما يقصد بشيء ولا يطلقون المعنى على شيء إلا أذا كان مقصودا، وأما إذا فهم الشيء على سبيل التبعية فيسمى معنى بالعرض لا بالذات[٤] ، ومعنى كل كلام ومعناته ومعنيته مقصده[٥].

فالمفهوم اللغوي للفظ أنه ما يتلفظ به الإنسان من كلام، وللمعنى أنه المقصود باللفظ، فالقصد شرط في اللفظ والمعنى، إذ لو لم يعتبر القصد لا يسمى الملفوظ كلاما.

---

(١) ينظر: الكليات،أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري: ٧٩٥.
(٢) لسان العرب: (مادة لفظ)
(٣) القاموس لمحيط: الفيروز أبادي (مادة لفظ).
(٤) الكليات: ٨٤٢.
(٥) لسان العرب: مادة (عنا).

واللفظ في الاصطلاح هو ما يتلفظ به الإنسان أو في حكمه مهملا كان أو مستعملاً[١].

وعلى مصطلح أرباب المعاني: هو عبارة عن صورة المعنى الأول الدال على المعنى الثاني على ما صرح به الشريف الجرجاني إذ قال: (إذا وضعوا اللفظ بما يدل على تفخيمه لم يريدوا اللفظ المنطوق، ولكن معنى اللفظ الذي دل به على المعنى الثاني) [٢].

أما المعاني فهي الصورة الذهنية إذا وقع بإزائها اللفظ من حيث إنها تقصد منه، وذلك ما يكون بالوضع فإن عبر عنها بلفظ مفرد سمي معنى مفردا، وإن عبر عنها بلفظ مركب سمي معنى مركبا، والمعاني: هي الصورة الذهنية من حيث إنها وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث أنها تقصد باللفظ سميت معنى ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما[٣]. والمعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ الذي تصل إليه بغير واسطة[٤].

وقد أدرك العلماء على نحو جيد قوة الترابط بين اللفظ والمعنى، وأدركوا قيمة المعنى في التعبير، ومكانة الألفاظ حين تُنضم إلى بعضها، فالمعنى لا يقوم بغير لفظ، كما لا تقوم الروح بغير جسد، فهما متلازمان تلازم الروح والجسد في الأشخاص، يقول العتابي(ت ٢٢٠هـ): (الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع اليد أو يد إلى موضع رجل ولتحولت الخلقة وتغيرت الحلية) [٥].

ولأهمية هذه الثنائية في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كانت محط عناية الباحثين والدارسين على اختلاف بيئاتهم ومعارفهم وعصورهم، فتعددت حولها النظريات وتضاربت الآراء واختلفت المناهج والمصطلحات من حقل لأخر، ونستطيع أن نقول إن التداخل والترابط اللذين تتسم بهما ثقافتنا العربية الإسلامية جعلا هذه الثنائية إرثا مشتركا بين جميع البيئات المعرفية، لأن الاهتمام بهما كان يستهدف أساسا خدمة النص القرآني ودراسته وتحليله فكان لكل بيئة نصيبها من بحث هذه القضية ومعالجتها بما يتناسب وطبيعة المادة الموصوفة.

ولهذا تعدُّ قضية اللفظ والمعنى واحدة من القضايا المهمة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إذ شغل النقاد والبلاغيون العرب بها منذ عهد مبكر يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

---

(١) ينظر:التعريفات: الشريف الجرجاني علي بن محمد (ت ٨١٦هـ)، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ط٢، بيروت: ١٩٣.
(٢) الكليات: ٧٩٥.
(٣) التعريفات: ٢٢٠.
(٤) الكليات: ٨٤٢.
(٥) كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١: ١٧٩.

أما في التراث النقدي والبلاغي العربي فقد اتضحت مسألة انفصال اللفظ عن المعنى لدى بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ)، إذ قال (ومن أرَاغ معنى كريما فليتمس لفظا كريما فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف) (١).

وبهذا يقرُّ بشر بن المعتمر بانفصال اللفظ عن المعنى، وأن المعنى يمكن أن يوجد في لفظ لا يلائمه.

ومما يلاحظ من قول بشر بن المعتمر وقول العتابي، أنهما يسوقان قضية اللفظ والمعنى وكأن انفصالهما مسألة مقررة، أي أنها غير خاضعة للحوار والجدل، وهذا يدل على أن قضية انفصال اللفظ عن المعنى قديمة، أو هي من المسلمات القديمة التي لا يشك فيها أحد ولا يتحاور فيها اثنان، أما الذي يخضع للحوار في هذه المسألة فهو (حسن التلاؤم بينهما).

أما الجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

فيقف عند هذه القضية وقفة خاصة تلفت أنظارنا وتدعونا إلى التأمل فيها ابتغاء الاهتداء إلى المعنى الحقيقي الذي رمى إليه الجاحظ بمقولته الشهيرة (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير) (٢). وهذا ما ينسجم تماماً مع مقولة بشر بن المعتمر السابقة.

ومن هنا نجد ان صناعة الشعر بالكلمات وليس بالمعاني، وبذلك ينتصر الجاحظ للفظ ويجعل له الشأن في الشعر.

إلا إنه من (أن عبارة الجاحظ مؤلفة بطريقة انفعالية بادية في قوله المعاني مطروحة في الطريق، ومعناها غامض على الرغم من كثرة ترديدنا لها) (٣).

إنّ من اليسير لديه أن تكتسب الحكمة من أفواه الفلاسفة والحكماء، وأن هناك صياغة معينة أو تصوراً خاصاً يصح أن نسميه تصوراً شعرياً بفعل إمكانات الصياغة التي تقدم المعنى بطريقة غير مألوفة.

ولهذا نجد ان عبارة الجاحظ عبارة تحتمل التأويل وأن جميع من عاصره أو جاء من بعده قد أول هذا العبارة بالطريقة التي يراها مناسبة لهُ وجميع مصنفات النقد العربي في القرنين الرابع والخامس لا تعدو أن تكون حاشية متوسعة من عبارة الجاحظ(٤).

كما يمكن القول إن إيصال المعنى في أحسن صورة أو بيان يعدُّ ترجمة لكلمة الجاحظ المشهورة وكأن الجاحظ يعني أن إفهام المعنى لا بد أن يكون إفهاماً مؤثراً، أو

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ج١/ ١٣٦.
(٢) الحيوان: الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ج٣ / ١٣١-١٣٢.
(٣) نظرية المعنى: مصطفى ناصف: ٣٨-٣٩.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣٩.

بعبارة أخرى إن الشاعر يقوم بعمله المؤثر من خلال الارتباط بجوانب محسوسة ومظاهر البديهة أو ما نسميه الآن التجسيم[١].

كما نجد الدكتور ناصف يربط بين عبارة الجاحظ وعبارة الآمدي في الموازنة (المعنى المكشوف) [٢]، ويقول عنها: (هي ترديد لعبارة الجاحظ المعاني مطروحة في الطريق، ويأتي ما نسميه حسن التأليف وروعة اللفظ فيزيد المعنى (المكشوف) بهاء أو رونقاً) [٣].

معنى ذلك أن هناك زيادات وغرابة طرأت عليه وهذا كله أطلق عليه مصطفى ناصف عبارة (الصورة العارية والصورة المنمقة) [٤].

كما نجد ناصف يتحدث عن هذه الثنائية إذ يقول: (هذه هي ثنائية المعنى وصورته الحسنة في القلب، هذه ثنائية المعنى المطروح في الطريق والصياغة التي تجوّده، لا لأنها تحمل موقفا جدليا خاصا في الشعر وجودته ولكن لأنها تعبير عن موقف رديء من اللغة ونشاط الشعر ذاته) [٥].

أما جابر عصفور فيقول: (ان الجاحظ في عبارته كان يقدم لأول مرة في تاريخ النقد العربي بعض الأفكار الهامة التي سيطرت على أجيال طويلة من البلاغيين والنقاد من بعده) [٦].

والملاحظ ان الجاحظ كان متميز الذوق والثقافة عن معاصريه إذ هجم على لغويي عصره واتهمهم بعدم قدرتهم على فهم الشعر وتذوقه،و كان حريصا

على الانفتاح على الثقافات الأخرى، إذ كانت له قدرة كبيرة على التحليل والتعليل والتأمل، فالشعر عند الجاحظ نشاط متميز، قد لا يؤدي بنا إلى ضرب خاص من المعرفة مثل الفلسفة وقد تكون فائدته محصورة وليست عامة مثل العلوم.

ولهذا جاء هجوم الجاحظ المشهور على أبي عمرو الشيباني عندما أعجب ببيتين من الشعر وهما:-

---

(١) نظرية المعنى: ٣٩.
(٢) الموازنة: ١/ ٤٠٢.
(٣) ينظر: نظرية المعنى: ٤٠.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٤٢.
(٦) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: الدكتور جابر عصفور: ٢٥٥.

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت، ولكن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال[1]

وهذان البيتان لا يدخلان في نظر الجاحظ عالم الشعر أو يوصف صاحبهما بالشاعرية إذ قال: (وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ولولا أن أدخِلَ في الحكم بعض الفتك لزعمتَ أنّ ابنَه لا يقول شعراً أبداً) [2].

ويؤكد الدكتور جابر عصفور(ان الجاحظ يبني رفضه للبيتين على أساس أنه ليس المعول في الشعر على نظم الحكم والأفكار المجردة، بل المعول فيه القدرة على صياغة هذه الأفكار صياغة جديدة مؤثرة، تعتمد على التصوير) [3].

فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير، ومصطلح (التصوير) على رغم من أنه كان يستعمل قبل الجاحظ إلا أنه هنا يكتسب دلالة خاصة، ويتضمن داخل سياقه ثلاثة مبادئ وهي:-

١. أن للشعر أسلوباً خاصاً في صياغة الأفكار أو المعاني وهو أسلوب يقوم على إثارة الانفعال واستمالة المتلقي.
٢. أن أسلوب الشعر في الصياغة يقوم على تقديم المعنى بطريقة حسية أي إن التصوير يترادف مع ما نسميه الآن بالتجسيم.
٣. أن التقديم الحسي للشعر يجعله قريبا للرسم ومشابها له في طريقة التشكيل والصياغة.

ومن هذا كله يمكن القول ان مصطلح التصوير يمكن أن يوصف عمل الشاعر أو البليغ بعامته على أنه (تصوير للباطل في صورة الحق) [4].

ولهذا نجد أن الجاحظ عندما قدّم فكرة التصوير فإنه كان يطرح لأول مرة في النقد العربي فكرة (الجانب الحسي للشعر) وقدرته على إثارة صور بصرية في ذهن المتلقي[5].وهذه الفكرة تعد مدخلاً إلى العلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى.

ولهذا نجد أن كثيراً من البلاغيين والنقاد بعد الجاحظ بدأوا يلتفتون إلى التصوير الأدبي ويهتمون بتأمل خصائصه الحسية وطريقته الخاصة في تمثيل المعنى للحواس.

أما مفهوم المعنى فهو المدخل الأساسي لفهم تصورات النقد العربي لوظائف الصورة الفنية وأهميتها.

---

(١) الحيوان: ج٣/ ١٣٠.
(٢) المصدر نفسه : ج٣/ ١٣٠.
(٣) الصورة الفنية: ٢٥٦.
(٤) البيان والتبيين: ج١ / ١١٣.
(٥) ينظر: الصورة الفنية: ٢٦٠.

ومن هنا نجد الدكتور عبد الحكيم راضي يؤكد أن المعنى مصطلح يستخدم في مجالات متعددة في الكتابات العربية القديمة ولعل ذلك ما جعله مصطلحاً متعدد الدلالة متنوع الأبعاد(١).

أما أوضح دلالات المصطلح وأكثرها استعمالاً فهي الدلالة التي تقرن (المعنى) بالغرض أو قصد الكلام.

ويقول الدكتور جابر عصفور المعنى بهذا الاستعمال يرادف الفكرة العارية المجردة، التي يتفنن المبدع في صياغتها.

وفي هذا يوافق جابر عصفور رأي الدكتور مصطفى ناصف في هذا المعنى (ان المعنى هو الغرض الذي يقصد إليه المتكلم) (٢).

لهذا فان مشكلة العلاقة بين المعاني والألفاظ جاوزت حدودها البسيطة تلك منذ أوائل القرن الرابع، وتبلورت تبلوراً أكثر نضجاً في ظل النظريات المعرفية التي قال بها الفلاسفة. ولقد طبق الفلاسفة هذا الفهم للعلاقة بين الصورة والهيولي على الشعر بعد أن افترضوا أن الشعر صناعة مثل غيره من الصناعات وهو افتراض كان يدعمه واقع الشعر العربي نفسه(٣).

وهكذا انتهوا إلى أن (العلة الصورية) في الشعر ليست إلا حسن تأليفه ويقترن هذا الحسن بالتخيل، ذلك أن التخيل ليس إلا طريقة خاصة في صياغة المعاني(٤).

ولقد عمقت هذه الأفكار مفاهيم البلاغيين والنقاد عن العلاقة بين الألفاظ والمعاني، ووضعت الأرضية الفلسفية الخصبة للفكرة القديمة التي ترى أن المعنى الواحد يمكن التعبير عنه بطرائق متعددة، تتفاوت قيمتها تبعاً لما فيها من صياغة.

وإذا تجاوزنا الحدود العامة للكلام البليغ واقتصرنا على الشعر وجدنا تأثير فكرة العلاقة بين الهيولي والصورة أوضح ما يكون عند قدامة والآمدي.

---

(١) ينظر: فكرة الابتكار في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، رسالة ماجستير، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٧٠م : ٣٩٠-٣٩١.
(٢) ينظر: الصورة الفنية: ٣١٣. و نظرية المعنى: ٣٨.
(٣) ينظر: الصورة الفنية: ٣١٥- ٣١٦.
(٤) ينظر: الصورة الفنية: ٣١٦.

أما قدامة فقد قرر أن (المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة...) (١).

وأما الآمدي فقد ذهب إلى أن صحة التأليف في الشعر هي أقوى دعائمه (فكل من كان أصح تأليفا كان أقوم بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه) (٢).

ولهذا نجد أبا هلال العسكري يقول إن المعنى هو الفكرة السابقة على الألفاظ من حيث وجودها واكتمالها في الذهن، والبلاغة من بلوغ القصد والغاية، إذ (هي كل ما تبلغ به المعنى ذهن سامعك فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة و معرض حسن) (٣).

وقد قيل نتيجة لذلك إن المعاني تترتب في النفس أولاً، ثم تترتب الألفاظ تبعاً لها في النطق.

قد نقول إن المعنى الذي لا تعبر عنه اللغة ليس معنى على الإطلاق ولا وجود له أصلاً لأننا لا نفكر على الأقل في فنون الأدب إلا باللغة.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن عملية التعبير تبدأ بعد أن تتكون لدى المتكلم فكرة ذهنية محددة يريد إخراجها من واقعها الذهني إلى واقعها المادي.

أما الدكتور شوقي ضيف فقد ذكر أن الجاحظ (أكثر من الحديث عن حسن الصياغة وكمال التركيب ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه وأداه شغفه بجودة اللفظ وحسنه وبهائه إلى أن قدمه على المعنى) (٤).

وهو ما يتناغم مع ما ذهب إليه الدكتور مصطفى هدارة بقول إن الجاحظ قد بدأ أول كلامه في هذه القضية فآثر جانب اللفظ، وأسقط المعاني في عبارته المشهورة فأبى ان يكون للمعاني مكانةٌ في الشعر(٥).

---

(١) نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر تحقيق محمد عبد المنعم: ٦٥.
(٢) ينظر: الموازنة: ١ / ٤٠٥.
(٣) كتاب الصناعتين: ١٠.
(٤) البلاغة تطور وتاريخ: الدكتور شوقي ضيف: ٥٢.
(٥) ينظر: مشكلة السرقات في النقد العربي: ٢٢٢.

لذا نجد الجاحظ قد بنى فكرته على أساس أن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية، أما الألفاظ فهي معروفه محصورة ولذا وجب الفضل لمن كان بارعاً في المحصور الضيق الألفاظ(١).

أما الدكتور عبد الحكيم راضي فإنه يقول: إن الدكتور احمد مطلوب (استنتج من قصة الجاحظ مع أبي عمرو الشيباني وتصريح الجاحظ بعقبها «بأن المعاني مطروحة في الطريق» سعة عناية الجاحظ باللفظ، ولكنه استدرك بأن هذا لا يعني ان الجاحظ يميل إلى اللفظ كل الميل وأنه يهمل المعنى كل الإهمال، وقال أيضاً إن الحق أنه عنى بالمعنى كما عنى باللفظ وقوله « فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج... » يوضح رأيه ويظهر نزعته) (٢).

غير أننا نجد الدكتور إحسان عباس يقول (أن موقف الجاحظ من المعنى يتسم بالتناقض إذ أن الجاحظ باعترافه بأن « المعاني مطروحة...» وأن الشأن في تخير اللفظ وجودة السبك... الخ قد انتصر إلى جانب الشكل وحط من شأن المعنى) (٣). غير ان الجاحظ يقول (هناك معانٍ لا يمكن ان تسرق كوصف عنترة للذباب فقوله – الجاحظ – اي المعنى لا يسرق دليل على أن السر في المعنى قبل اللفظ ولكن الجاحظ لم ينتبه لهذا التناقض) (٤).

إن ما ذهب إليه الدكتور مصطفى ناصف بقول: (ولعل ذلك من عجائب الأمور، إذا ما علمنا بأن الجاحظ رجل معتزلي والمعتزلة كما هو معروف عنهم يعنون بالمعاني العقلية المنطقية التي تعينهم على أداء مقالاتهم والبرهنة على حججهم ومن ثم إقناع خصومهم) (٥).

نستطيع القول ان الجاحظ هنا قد فهم المعنى كما فهمه المعتزلة وهو المعنى العقلي المنطقي، غير أنه لم يقتنع بأن هذا المعنى العقلي المنطقي يصنع شعرا، فكأنه قال لا بد من أن يكون الشعر في العنصر الآخر وهو اللفظ، واللفظ عند الجاحظ لا يعني أصوات الحروف فقط، وإنما يعني المعنى الشعري الذي يقابل المعنى العقلي، أي أن الجاحظ لم يفضل اللفظ بما هو أصوات بل بما هو معنى شعري ودل على المعنى الشعري باللفظ، لأن المعنى صار يعني المعرفة العقلية المنطقية الواضحة فكان اللفظ أقرب مصطلح يدل به على جوهر الشعر إذ ان المعاني مطروحة في الطريق وإنما الشأن في كيفية صياغتها شعرا (٦).

وفضلاً عما تقدم نجد الدكتور عبد الحكيم راضي يقول: (من النقاد العرب من أساء فهم الجاحظ فحاول التهوين من شأن المعنى أو دافع عن الصناعة اللفظية دون أن يحاول

---

(١) ينظر: البيان والتبيين: ١/ ٧٦.
(٢) ظاهرة الخلط : ٤٦.
(٣) تاريخ النقد العربي عند العرب: ٩٨.
(٤) المصدر نفسه: ١٠٠.
(٥) نظرية المعنى في النقد العربي: مصطفى ناصف: ٣٨.
(٦) ينظر: نظرية المعنى في النقد العربي ٣٩-٤١.

إدراك مرامي الجاحظ، لقد أشار إبراهيم سلامة إلى الآمدي وأبى هلال، أما الدكتور عباس فإنه يشير إلى الآمدي على أنه ممن حاولوا التهوين من شأن المعنى في سبيل الدفاع عن النظم، ولم يشع عن الآمدي استخدام مصطلح النظم، ظناً أنه لم يخرج في موقفه من عنصري اللفظ والمعنى عن الخط العام المتصل في كتابات النقاد العرب من الانتصار لعنصر الصياغة أو حسن اللفظ... وكذلك في استعمال الجاحظ والبحتري والقاضي الجرجاني وأبى هلال يحمل هذا المصطلح دلالة غنية جعلت عبد القاهر يسوي بينه وبين الصورة وقال إن ذلك كان عرف القدماء حين يطلقون ذلك المصطلح أي اللفظ) (١).

أما ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ):-

فقد كان من الذين يفصلون فصلا حاسما بين اللفظ والمعنى، ومن الذين يرون مجيء المعنى الحسن في اللفظ الردئ، بعد أن قسم الشعر على أربعة اضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظه وقصر معناه، وضرب جاد معناه وقصر لفظه، وضرب قصر فيه اللفظ والمعنى... (٢).

ومن هذه القسمة التي استوفى فيها ابن قتيبة جميع الممكنات يبدو انه قد تأثر ببيئة الفقهاء فجعلته يريد من المعنى أن يكون حكمة أو قولا صالحا ينتفع به الناس، ويتضح ذلك من خلال الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وحسن لفظه ومنها:-

أيّتُهَا النّفْسُ أجْمِلِي جَزَعَا إنّ الّذي تَحْذَرينَ قد وَقَعَا(٣)

وكذلك يتضح موقفه من هذا الأمر من خلال الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وقصرت ألفاظه:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالحُ(٤)

كما أن ابن قتيبة لا يرضيه المعنى الشعري الذي ليس فيه فكرة توجيه وإرشاد لذا يقول في هذه الأبيات:

فلما قضينا من منى كلّ حاجة ومسح بالأركان من هو ماسحُ

وشدّت على حدب المطايا رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ(٥)

---

(١) ظاهرة الخلط: ٥٧.
(٢) ينظر:الشعر والشعراء: ١/ ٦٤.
(٣) ديوان أوس بن حجر:تحقيق وشرح، د. محمد يوسف نجم بيروت ١٩٨٠م: ٥٣.
(٤) ديوان لبيد بن ربيعة: دار صادر: ٢٢٤. وفيه: (ما عاتب الحر):
(٥) الخصائص ابن جني: ١/ ٢٢٥، و أسرار البلاغة: ١٥.

أنها (أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع) [١]، غير أنه ليس تحتها معنى مفيد، ويبدو أن خير الشعر لدى ابن قتيبة هو المعنى النافع المفيد الذي يؤدى بصياغة قوية متماسكة.

أما ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ):-

فلم يخرج عن دائرة الفصل بين اللفظ والمعنى إذ قال: (وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن، قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه... وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها ولو جليت في غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها) [٢].

ومن هذا النص يتضح لنا ان ابن طباطبا يفصل بين اللفظ والمعنى، ومقتضاه أن المعنى يوجد ثم تجيء الألفاظ لتدل عليه، وربما قصرت هذه الألفاظ في الدلالة غير أن المعنى باقٍ كما هو فمن الأولى أن تجيء الألفاظ مشاكلة للمعاني.

أما قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ):-

فقد وقف عند هذه القضية، وفصل بينهما منذ أن عرف الشعر بأنه (قول موزون مقفى يدل على معنى) [٣].

وكذلك قال أيضا (المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة) [٤].

يبدو أنَّ قدامة يريد أن يقول ان المعاني معروضة للناس وإنما الفضل لمن يمنح هذه المعاني الصورة التي تصير بها شعرا.

أما عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٠هـ).

ان قضية الفصل بين اللفظ والمعنى بقى قائما لدى النقاد والبلاغيين العرب إذ نجدهم يجعلون للألفاظ صفات وللمعاني صفات أيضا، ويدعون الشاعر إلى أن يلائم بين معناه ولفظه، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني وعاب الذين يقدمون الشعر لمعناه أو للفظه، أي أنه أنكر قضية الفصل بين اللفظ والمعنى.

وقد توحي عناية عبد القاهر بالمعنى بأنه منحاز إلى جانب المعنى دون اللفظ وهذا الاعتقاد صحيح من جهة وخاطئ من جهة أخرى، ذلك أن عبد القاهر لا يقصد بالمعنى المعنى العقلي المنطقي وإنما يقصد به المعنى الشعري المتولد من الصياغة، فهو قد اهتم بالمعنى مع اهتمامه بالصياغة وذهب إلى أن الألفاظ خدم للمعاني وأوعية لها فهي تتبعها في حسنها وجمالها وقبحها ورداءتها[٥].

---

(١) الشعر والشعراء: ج١ / ٦٦.
(٢) عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام: ٨.
(٣) نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى: ١١.
(٤) المصدر نفسه: ١٣.
(٥) ينظر: دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني: ٩٥- ٩٧.

أي إن للألفاظ وظيفة معينة عليها أن تؤديها وإلا فلا قيمة لها في ذاتها على أن الألفاظ تتحدد قيمتها بمقدار ما توحيه من داخل الصورة المركبة.

ولهذا نجد الدكتور أحمد بدوي كان صريحاً في سلك عبد القاهر مع أصحاب الصياغة فهو «أحد نقاد العرب الذين يعنى معظمهم بالصياغة اللفظية، ويرونها المظهر الأساسي في الأدب» وإنه في ذلك كالجاحظ تماماً في العناية بالصياغة ويراها هي التي تميز النص وترفعه على غيره(١).

أما الأستاذ محمد خلف الله أحمد فنجده قد وقف موقفاً متردداً، إذ نجده في مواضع يصرح بأن عبد القاهر قد عالج في كتابه (دلائل الإعجاز) طريقة نظم الكلام وترتيب معانيه محاولاً في ثنايا كل ذلك أن ينقل الاهتمام من جانب اللفظ إلى جانب المعنى، منبها إلى أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة(٢). ونجده في موضع آخر يقول:(إن نظرية عبد القاهر في أمر اللفظ والمعنى تحتاج إلى نظر ومناقشة ويتلجلج في بعض جوانبها شيء من الغموض والتناقض والإسراف) (٣).

غير أننا نجد الدكتور مصطفى هدارة لم يرتضِ هذا الرأي للأستاذ خلف الله في هذا الصدد(٤).

وقد جعل الدكتور بدوي طبانة عبد القاهر (رجل المعنى والفكر والمنطق) إذ قال: (إنه استمر على رأيه في إكبار المعنى، سواء في كتاب الدلائل أو الأسرار وقد جعل المعنى أساس كل جمال في العمل الأدبي) (٥).

ثم يقول الدكتور طبانة: (وكما كان الجاحظ مغاليا في تقدير اللفظ كان عبد القاهر مغاليا في تقدير المعنى) (٦).

ومن هنا وجد الدكتور عبد الحكيم راضي اتفاقاً بين الباحثين إذ قال:- (لقد وافق الدكتور مصطفى ناصف رأي الدكتور طبانة في هذا الرأي مع حُكم غير مفهوم بالفصل بين النظرية الأدبية عند عبد القاهر وموقفه في تعليل مكمن الإعجاز في النص القرآني) (٧).

وينقل الدكتور ناصف لنا رأياً لأبي حيان التوحيدي فهناك (خلاف بين اللفظ والمعنى)، ويعلق على هذا القول ويقول:إِنَّ(أبا حيان متفلسف يرى اللفظ بائداً على الزمان،

---

(١) ينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط٣ – ١٩٦٤م: ٣٦١. ودلائل الاعجاز: ١٢٩.
(٢) ينظر: من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده: ٢١٣.
(٣) المصدر نفسه: ٢١٣-٢١٤.
(٤) ينظر: مشكلة السرقات: ٢٠١- ٢٠٢.
(٥) ينظر: البيان العربي: ١٧٨-١٨٦.
(٦) المصدر نفسه: ١٨٦.
(٧) ظاهرة الخلط: ١٨.

ويأتي البلغاء أو النقاد فيقولون المعنى بائد واللفظ ثابت. والمعنى متهافت على عكس ما يدعي أبو حيان والفلاسفة وأشباههم ولكن الموقف واحد يعبر عنه بعبارات مختلفة) (١).

كما يقول إن (هذا الموقف يعبر عنه عبد القاهر في فهم اللغة، إن الكلمات أدوات للإشارة والكلمات عند جميع الباحثين في اللغة العربية لا تخلق الأفكار والكلمات عندهم ليست مواقف أو رموزاً أو تأويلات أساسية،هم يقولون إذنا نفهم فكرة الرجل بمعزل عن كلمة الرجل نفسها) (٢).

ويتحدث الدكتور ناصف عن ثنائية المعنى المطروح في الطريق والصياغة التي تجوده، ويقول (إن عبارة الجاحظ التي تذكرنا أول الأمر بكلمة مالا رميه «جرثومة ضخمة» لا لأنها تحمل موقفا جدليا خاصا في الشعر وجودته ولكن لأنها تعبير عن موقف ردئ من اللغة ونشاط الشعر ذاته) (٣).

ثم يفسر الدكتور ناصف عبارة الجاحظ ويقول: (أن الجاحظ في هذه الرسالة يقول المعنى قد يوجد، ولا عبارة عنه ولا لفظ يؤديه. هناك معان، وهناك أسماؤها والله تعالى يعلم آدم مرة هذه الأسماء ومرة هذه المعاني وهناك فرق بين الدلالة والمدلول عليه ولكن المدلولات أو المعاني مطروحة في الطريق يعنى أن العلم بالأشياء مركوز في طبائع الناس الذين تعلموا ما تعلمه آدم من قبل ولهذا كان الجاحظ وجميع نقاد القرنين الثالث والرابع يفهمون ما يسمى العبارة الموجزة والعبارة المطنبة فهما مطابقا لهذه الفلسفة) (٤).

ويرى الدكتور ناصف إن عبد القاهر حينما جاء (أحدث ضجة كبيرة نافعة، ولكن عبد القاهر لم يحد قيد شعرة عن هذه « الفلسفة الرديئة») (٥).

والملاحظ ان عبد القاهر قرأ عبارة الجاحظ كما قرأها كل مثقف وخرج بنتيجة من هذه العبارة، أن المعنى يشبه فضة الخاتم و صنعة الخاتم تشبه اللفظ والتأليف، ويخرج ناصف من هذه النتيجة بأنه ما يزال هناك انفصال بين المعنى وطريقة التعبير عنه بين ما تقوله وكيفيه قوله أو أدائه(٦).

وقد وازن عبد القاهر بين اللفظ والمعنى إذ يقول الدكتور إبراهيم سلامة (لم يغب عن عبد القاهر حجة واحدة من هذة الحجج – يقصد حجج أصحاب اللفظ – وقد نصب نفسه لدحضها والرد عليها وإرجاعها إلى ما يريد من نصرة المعنى، فهو يرى أن الشأن كله للمعاني وأن الألفاظ تقع مرتبة على الورق إذا كانت المعاني مرتبة في ذهن الكاتب وأن اللسان يجري بها مرتبة إذا كانت معاني هذه الألفاظ منظمة في ذهن الخطيب، فإذا رتبت المعاني

---

(١) نظرية المعنى: ٤١-٤٢.
(٢) نظرية المعنى: ٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ٤٢.
(٤) المصدر نفسه: ٤٢-٤٣.
(٥) المصدر نفسه: ٤٣.
(٦) ينظر: نظرية المعنى: ٤٣.

ترتيبها الطبيعي حصلت على صورة خاصة في التأليف يرجع الحسن فيها إلى ترتيب المعاني لا إلى انتقاء الألفاظ) (١).

بينما نجد الدكتور عبد الحكيم راضي يقول مع (هذه العناية بالمعاني يخطئ كل الخطأ من يفهم عن عبد القاهر أنه لا يعني إلا بالمعنى وأنه يهمل التصوير الذي لا يكون إلا بترتيب الألفاظ والتأليف بينها في صورة مرادفة للأديب يبتكرها ويقصد إليها ويُعرف بها وتُعرف به) (٢).

ثم يقول الدكتور إبراهيم سلامة (وكما انتقد عبد القاهر أبا هلال في الخروج بكلام الجاحظ عما قصد إليه ينتقد أيضا الآمدي وغيره ممن قالوا إن من أخذ معنى عارياً فكساه لفظا من عنده كان أحق به...) (٣).

إلا أن الدكتور عبد الحكيم راضي يخالف الدكتور إبراهيم سلامة هنا ويقول: (الواقع أن عبد القاهر لم ينتقد لا الآمدي ولا أبا هلال، وهو يقبل العبارة المذكورة مثل بقية العبارات التي يشير ظاهرها إلى تعظيم شأن اللفظ وهي في حقيقتها تؤكد قيمة المعنى) (٤).

وكذلك سلك الدكتور غنيمي هلال المسلك نفس في عَدّ عبد القاهر قد وازن بين اللفظ والمعنى من حيث القيمة، فعبد القاهر (لم يُقر من رجحوا المعنى على اللفظ... بل كان من أنصار الصياغة، من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية...) (٥).

ومن هذا يسأل الدكتور غنيمي هلال هل معنى ذلك أن عبد القاهر من أنصار اللفظ؟ ثم يجيب عن ذلك يأبى عبد القاهر أن يكون من أنصار اللفظ على نحو ما رآه مَنْ سبقوه في جملتهم، إذ إن هؤلاء يجهدون أنفسهم في الكشف عن حسن الكلام في حسن ألفاظه في ذاتها... (٦).

وكذلك نجد الدكتور أحمد مطلوب قد سار في المسار نفس في أنَّ عبد القاهر قد وازن بين قيمة كل من اللفظ والمعنى في إطار النص الأدبي إذ قال: (إن عبد القاهر في كل ما عرضه ليس من أنصار الألفاظ من حيث هي كلم مفردة، وليس من أنصار المعاني التي هي أساس كل شيء، بغض النظر عن تجانس الألفاظ وتلاحمها، وإنما هو من أنصار الصياغة من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية) (٧).

ومن هذا تسقط كثير من الاعتراضات عليه، وترد جميع التهم التي وجهت إليه، فعبد القاهر ليس ممن يتأرجح بين اللفظ والمعنى، بل هو ممن جمع بينهما وسوى بين خصائصهما وجعلهما شيئا واحداً يعتمد على الصياغة التي نضجت في بحوثه.

---

(١) بلاغة أرسطو:٣٧١ -٣٧٢.
(٢) ينظر: ظاهر الخلط: ٢١.
(٣) بلاغة أرسطو: ٣٨٩.
(٤) ظاهرة الخلط: ٢٢.
(٥) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٢٥٥-٢٥٦.
(٦) المصدر نفسه: ٢٥٩.
(٧) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده: ١١٥.

وكذلك نجد الدكتور احمد مطلوب يقول ليس بين الجاحظ وعبد القاهر خلاف فكلاهما يرى الصياغة الأدبية هي التي يتفاضل بها أصحاب الكلام، ومما يدلنا على ذلك استدلاله بكلام الجاحظ على مذهبه في الصياغة وإيمانه به(١).

وهنا يوافق الدكتور عبد الحكيم راضي رأي الدكتور أحمد مطلوب في هذه المسألة في أنَّ عبد القاهر يميل إلى الصياغة وإتباعه في ذلك مذهب الجاحظ الذي استشهد به عبد القاهر(٢).

ومن كل ما تقدم نجد أن الدكتور عبد الحكيم راضي قد عالج هذه القضية على مستويين، أولهما خاص، ويتعلق بالمفاهيم، والآخر عام ويتعلق بمشكلة المصطلح في التراث، ونجده يقول (إن هذه مشكلة بدأت بمقدمة وانتهت إلى نتيجة، أما المقدمة فهي قصور المصطلحات الدالة على هذين المفهومين «اللفظ والمعنى» أو «الشكل والمحتوى»، أما النتيجة فهي شيوع ظاهرة الازدواج في دلالة كل من المصطلحين، وكلتاهما المقدمة والنتيجة أو القصور والازدواج ترتب عليهما الكثير من الاضطراب والخلط في فهم مسائل ذلك النقد وقضاياه خاصةً ما يتصل بقضية الشكل والمحتوى، ليس بين المحدثين فحسب وإنما لدى القدماء أيضاً) (٣).

ويقول:- (من هنا لم تكن مشكلة اللفظ والمعنى مشكلة بلاغية فحسب، أو حتى مشكلة لغوية، لقد كانت موضع اهتمام بيئات عديدة أخرى فإلى جانب النحاة واللغويين كان هناك المفسرون والفقهاء والأصوليون والمتكلمون من مختلف الفرق) (٤).

ويذكر الدكتور شكري عياد: (أن الخصومة حول اللفظ والمعنى ما كانت لتشتد هذه الشدة لو لم تغذها دوافع اعتقاديه أخرى سياسية واجتماعية) (٥).

ومن هنا يقر الدكتور عبد الحكيم راضي بقوله (مع إيماننا بانصراف الجاحظ فعلا إلى جانب اللفظ بمعنى التركيب والصياغة فإن دقة الموقف تقتضي منا سؤالا عما إذا كان الجاحظ قد بدأ بالإعلاء من شأن اللفظ فغض من شأن المعنى، أو أنه بدأ بالابتعاد عن شأن المعنى فكان طبيعيا أن يتجه إلى تسليط الضوء على اللفظ) (٦).

إذ نجده يرجح الرأي الثاني بمقولته هذه إضافة إلى ذلك فأنه يؤكد (أن مفهوم كل من « اللفظ» و « المعنى » عند عبد القاهر مضطرب خاصة بين الدارسين المحدثين) (٧).

من خلال ما تقدم يمكن أن نستنتج أن الدكتور عبد الحكيم راضي قد ادرك في دراسته لقضية اللفظ والمعنى أن المعنى مصطلح متعدد الدلالة ومتنوع الأبعاد كما أنه أدرك مدى سعة عناية الجاحظ باللفظ إلى جانب أنه لا يهمل المعنى كل الإهمال، كما أكد في

---

(١) المصدر نفسه: ١١٦.
(٢) ظاهرة الخلط: ٢٥.
(٣) ظاهرة الخلط : ٧.
(٤) المصدر نفسه: ٩.
(٥) كتاب ارسطو طاليس (فن الشعر) د. شكري عياد: ٢٤٧.
(٦) الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي: عبد الحكيم راضي: ٢١٤.
(٧) ظاهرة الخلط: ٣٧.

معالجاته لهذه القضية قصور المصطلحات الدالة على هذين المفهومين « اللفظ والمعنى » ودلالتهما بما ترتب عليهما شيئا من الاضطراب والخلط في فهم مسائل النقد وقضياه خاصة ما يتعلق بقضية الشكل والمحتوى بين المحدثين والقدماء على السواء.

من خلال ذلك كله نجد أن الدكتور عبد الحكيم راضي قد عالج هذه القضية بجانبيها الخاص المتعلق بالمفاهيم والعام المتعلق بمشكلة المصطلح في التراث إذ أكد أن مشكلة اللفظ والمعنى لم تكن بلاغية فحسب أو حتى مشكلة لغوية وإنما كانت موضع عناية جهات كثيرة إلى جانب النحاة واللغويين كان هناك المفسرون والفقهاء والأصوليون من مختلف الفرق لذلك عبر وبشكل واضح على أن مفهوم اللفظ والمعنى قد يكون مضطربا لدى بعض الدارسين المحدثين.

ومن كل ما تقدم يحدثنا الدكتور عبد الحكيم راضي عن الإشكاليات التي وجدها كل من الجاحظ وعبد القاهر إذ يقول إنَّ (الجاحظ قد أوجد لنا ما يمكن أن نطلق عليه إشكالية المعنى / المعنى، فإن عبد القاهر قد أوجد بدوره عدداً من الإشكاليات منها:- إشكالية اللفظ / المعنى، إشكالية اللفظ / اللفظ، وإشكالية المعنى / المعنى) [١].

ولهذا فان حديث عبد القاهر لم يكن إذن عن معنى واحد ولفظ واحد، ينتصر لهذا مرة ضد ذاك، وينتصر لذاك مرة ضد هذا، فيكون التناقض من النوع البسيط، إنما في حديثه أكثر من معنى و أكثر من لفظ، أو بعبارة أخرى أكثر من مستوى للمعنى وأكثر من مستوى للفظ، وهذا حسب ما يقول الدكتور عبد الحكيم راضي هو (الذي أفضى إلى ظهور الإشكاليتين، إشكالية اللفظ / اللفظ، وإشكالية المعنى / المعنى) [٢].

وهنا يؤكد لنا عبد القاهر قيام هذه الإشكالية – إشكالية اللفظ والمعنى – وهي كما يراها الدكتور عبد الحكيم راضي (إشكالية فنية، تتعلق بصلب النظرية الأدبية) [٣] ، أما الإشكاليتان الأخريان فيقول عنهما إنهما(إشكاليتان لغويتان أساسا تتعلقان بدلالة كل من اللفظ والمعنى عنده) [٤].

والواقع أن هناك جدلاً لا يمكن الخلاص منه بين الإشكاليتين الأخيرتين « اللفظ / اللفظ، و المعنى / المعنى»، والإشكالية الأولى « اللفظ / المعنى» وهو جدل يمكن أن نصفه بالتعقد، ذلك أن العلاقة بين الطرفين تختلف سلبا وإيجابا في مرحلة النشأة عنها عند محاولة الحل، فيرى الدكتور عبد الحكيم راضي أن إشكالية اللفظ /المعنى هي التي أوجدت الإشكاليتين الأخريين[٥].

وهنا اوجد عبد القاهر المجال للحديث عن أكثر من لفظ وأكثر من معنى، إذ إن هناك لفظا هو مناط القيمة ولفظا عارياً منها، ومعنى هو مناط القيمة ومعنى عارياً منها،

---

(١) ظاهرة الخلط: ٧٩.
(٢) المصدر نفسه: ٨٠.
(٣) المصدر نفسه: ٨٣.
(٤) المصدر فسه: ٨٣.
(٥) ينظر: ظاهر الخلط: ٨٣.

وعلى هذا النحو فإن القضية لم تعد قضية لفظ مقبول ومعنى مرفوض، أو العكس، لقد أصبحت القضية قضية لفظ مقبول ولفظ مرفوض، كما أصبحت معنى مقبولاً ومعنى مرفوضاً.

ويستبعد عبد القاهر أن يكون للخصائص الصوتية للفظة قيمة في الحكم على الكلام، ولذلك يرفض ما قد يتعلق به البعض من شبهة تعلق الفصاحة بصفة «التلاؤم اللفظي» و « تعديل مزاج الحروف» حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان(١).

أما المعنى فيمكن أن تنحصر صفاته في اثنتين هما: العموم أو الشيوع من جهة، و سهولة التحصيل أو الإيجاد من جهة ثانية.

قد عَبَّر الدكتور عبد الحكيم راضي عن المعنى الذي استبعده عبد القاهر وغيره من النقاد العرب بـ« المعنى الإجتماعي» ويقول (ورأينا مصداق هذا في حديثهم عن المعاني المشتركة التي لا يقال فيها بالسرقة أو الأخذ لأنها من نوع ما هو شائع عام في الطباع) (٢).

كما يرفض عبد القاهر أن (تكون الكناية والاستعارة والتمثيل أوصافا للفظ، لأنه لا يتصور أن تكون مزيتها في اللفظ حتى تكون أوصافاً له وذلك محال، من حيث يعلم كل عاقل أنه لا يكنى باللفظ عن اللفظ، وأنه إنما يكنى بالمعنى عن المعنى، وكذلك يعلم أنه لا يستعار اللفظ مجرداً عن المعنى، ولكن يستعار المعنى، ثم اللفظ يكون تبع المعنى... ويعلم كذلك أنه محال أن يضرب المثل باللفظ، وأن يكون قد ضرب لفظ « أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى» مثلا لتردده في أمر البيعة) (٣).

هنا يقول الدكتور عبد الحكيم راضي (أن عبد القاهر يقرر بعد أن كرر القول بعودة المزية في هذه الأجناس إلى «اللفظ»... يجئ ليقرر أن حقيقتها « إثبات معنى لمعنى» وأن القصد بالإثبات فيها «إلى معنى يستدل بمعنى اللفظ عليه» وأنه فيها «إنما يكنى بالمعنى عن المعنى» وأن الدلالة فيها « دلالة معنى على معنى» وأن المتكلم يتوصل « بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائد»)(٤).

ويبدو ان عبد القاهر قد مهد في إطلاق كلمة «المعنى» على هذه الفنون، وذلك في حديثه عن «اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره»، وهو ما جعل مداره في الأعم الأغلب على «الكناية والمجاز» ثم أضاف إليهما التمثيل، إذ قال (الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض) (٥).

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٥٧، وينظر: ظاهر الخلط: ٨٦.
(٢) ظاهرة الخلط: ١١٠، وينظر: الوساطة ١٨٣.
(٣) دلائل الإعجاز: ٤٤٣.
(٤) ظاهرة الخلط: ١٢٤.
(٥) دلائل الإعجاز: ٢٦٢.

وبذلك يؤكد عبد القاهر أن في الإمكان أن يطلق على عنصر الشكل مصطلح «المعنى» أيضاً أو «المعنى الأول»، وأن هذا «المعنى» أو «المعنى الأول » هو مناط القيمة، خلافاً للمعنى، أو المعنى الثاني، أو الغرض وهو الذي استبعده من حيز القيمة(١).

وهنا نصل إلى نتيجة وهي ما يسمى «بمصطلحات علم اللغة» - كما يقول الدكتور عبد الحكيم راضي _، تعدد الدوال على المدلول الواحد، وكذلك تعدد المدلولات التي تندرج تحت الدال الواحد وهذه تمثل الظاهرة الأولى، أما الظاهر الثانية فتتمثل في أن الدال الواحد يدل على أكثر من مدلول، والمثل الواضح على هذا مصطلح «المعنى» الذي يقع مرة في جانب المحتوى، ومرة في جانب الشكل وهو المسلك الذي يفضي إلى أن يطلق مصطلح «المعنى» مراداً به نفس ما يراد بمصطلح «اللفظ»، حين يطلق كلاهما على عنصر الشكل أي الصياغة الفنية(٢).

والملاحظ أنَّ كثيراً من البلاغيين والنقاد من القدماء وفي مقدمتهم الجاحظ وعبد القاهر قد راوحوا بين إطلاق المصطلحين «اللفظ و المعنى» على عنصر الشكل، وهو ما كان ينبغي التنبيه عليه من جانب القدماء والتنبيه عليه من جانب المحدثين، فذلك كان كفيلا لدى القدماء بتصحيح تصور أمثال الخطيب القزويني، لما اعتقد أنه تناقض في مواقف عبد القاهر، كما كان كفيلا لدى المحدثين ممن أمنوا على تصور الخطيب، بتحرير نظرتهم إلى موقف عبد القاهر وغيره من عنصري الشكل والمحتوى،... فلا يوصف كل منهم من أنصار اللفظ – الشكل – أو من أنصار المعنى – المحتوى(٣).

وعلى سبيل المثال فهذا الباب الذي عقده ابن جني في الخصائص بعنوان « باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني»، يقول الدكتور عبد الحكيم راضي أن (هذا الباب يحمل دفاعاً رائعاً وتوجيها سديداً لما قد يوحي به كلام الجاحظ من ميل إلى جانب اللفظ وهو أوقع من كل الاجتهادات التي تكبدها المحدثون لإقامة ما تصوروه من أود في تصريح الجاحظ، إذ يرى ابن جني أن العناية باللفظ والتأنق فيه والمبالغة في إصلاحه هي قمة العناية بالمعنى والحرص عليه) (٤).

وليس من شك في أن هذا التصور قد قدم الحل الأمثل لهذه المشكلة – في حالة تصور وجودها طبعا – وذلك بإزالة التنافي بين العناية باللفظ وتقدير قيمة المعنى، وبين تقدير قيمة المعنى وضرورة العناية باللفظ. فأهمية المعنى تقتضي أن يعتنى باللفظ، والعناية باللفظ هي مقتضى أهمية المعنى.

ولذلك يقول ابن جني (إن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة والخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدراً في نفوسها. فأول ذلك عنايتها بألفاظها،

---

(١) ظاهرة الخلط: ١٢٦-١٢٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٣٣.
(٣) ينظر: ظاهرة الخلط: ١٣٣-١٣٤.
(٤) المصدر نفسه: ١٣٥.

فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد...) (١).

وهذا من شأنه لدى الدكتور عبد الحكيم راضي أن (يلغي الأثر المترتب على صيغة التفضيل للمعنى في حديث أبن جني « أقوى، أكرم، أفخم » إذ لا مكان للمفاضلة إلا عند الاضطرار إلى الاختيار او التفضيل، وهو غير مطلوب، لأننا بصدد طرفين يعضد كل منهما الآخر، فأهمية المعنى تقتضي أن يعتنى باللفظ، والعكس) (٢).

وهكذا يجئ الخلاف بين ابن جني ومجموعة النقاد على مستويين: عام يتعلق بموقف العرب عموماً من عنصري اللفظ والمعنى، إذ يرى ابن جني أنهم لم يغفلوا شأن المعاني، وإنما وفوها حقها وأولوها عنايتهم، متوسلين إلى ذلك بالعناية باللفظ والتأنق فيه. أما المستوى الخاص فيتعلق بالأبيات الحائية التي وقفوا عليها وأجمعوا على أنها بعبارة ابن جني شريفة اللفظ مشروفة المعنى، إذ رأى هو أن معناها لا يقل قيمة عن لفظها إن لم يتقدم عليه(٣).

هذا الموقف حسب ما يقول الدكتور عبد الحكيم راضي من جانب ابن جني ونصوصه التي حملته إلينا لا (يقل أهميه عن نص الجاحظ الشهير...، بل هو أهم من نص الجاحظ، لأنه من ناحية لم يستوف حقه من التأمل والعناية، ولأنه من ناحية أخرى يحمل التوجيه السديد لمراد نص الجاحظ، ويعمل من ناحية ثالثة على تلافي بعض ما خلفه ظاهر كلام الجاحظ من آثار لم تكن في حسبانه، ولأنه أخيراً يمثل اختيار عبد القاهر في محاولته لدحض شبهة القائلين بأن للفظ مزايا خاصة ينفرد بها وتطلق عليه بعيداً عن المعنى) (٤).

ومن هنا كان وقوف عبد القاهر عند الأبيات نفسها مدافعا عن معناها منتهجا السبيل نفسه التي سلكها ابن جني معرجا على جوهر الأفكار التي وقف عندها.

وهنا يقول الدكتور عبد الحكيم راضي (جاءت النتيجة التي تكاد تصل إلى حد المفاجأة، أعني ما لمحناه يقيناً من متابعة عبد القاهر لابن جني في رأيه في قيمة المعنى في الأبيات المشار إليها، وهي المتابعة التي استدعت بدورها التنبيه إلى تأثر عبد القاهر في موقفه من عنصري اللفظ والمعنى عموما برأي ابن جني في بابه المشار إليه... خاصة حين يكرر أن البلاغيين كثيراً ما يتكلمون عن ميزات في اللفظ لا يمكن فهمها إلا إذا كان المقصود بها المعنى) (٥).

---

(١) الخصائص: ج١/ ٢١٥-٢١٦.
(٢) ينظر: التقديم لكتاب الخصائص: ج١/ ٩-١٠.
(٣) ينظر: المصدر نفسه : ج١/ ١٣-١٤.
(٤) التقديم لكتاب الخصائص: ج١/ ١٤.
(٥) المصدر نفسه: ج٢/ ٤. وينظر دلائل الإعجاز: ٦٣-٦٤.